سورة الأنبياء

١ـ **سماها السلف (سورة الأنبياء)** ففي صحيح البخاري عن عبدالله ابن مسعود قال: «بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأُوَل وهن من تلادي».

ولا يعرف لها اسم غير هذا.

ووجه تسميتها سورة الأنبياء أنها ذُكِر فيها أسماء ستة عشر نبياً، ومريم ولم يأت في سور القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام؛ فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبياً. ١٧/٥

٢ـ **وهي مكية بالاتفاق،** وحكى ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك، ونقل السيوطي في الإتقان استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمْ الْغَالِبُونَ﴾ ولم يعزه إلى قائل. ١٧/٥ـ٦

٣ـ **وهي السورة الحادية والسبعون في ترتيب النزول** نزلت بعد حم السجدة، وقبل سورة النحل؛ فتكون من أواخر السور النازلة قبل الهجرة. ١٧/٦

٤ـ **وعدد آيها** في عد أهل المدينة ومكة والشام والبصرة مائة وإحدى عشرة، وفي عد أهل الكوفة مائة واثنتا عشرة. ١٧/٦

٥ـ **أغراض السورة: والأغراض التي ذُكِرَت في هذه السورة هي:** الإنذارُ بالبعث، وتحقيقُ وقوعه، وإنه؛ لِتَحَقُّق وقوعِه كان قريباً.

وإقامةُ الحجةِ عليه بخلق السماوات والأرض عن عدم، وخلق الموجودات

من الماء.

التحذيرُ من التكذيب بكتاب الله -تعالى- ورسوله.

والتذكيرُ بأن هذا الرسولَ ﷺ ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله.

وذكْرُ كثيرٍ من أخبار الرسل -عليهم السلام- .

والتنويهُ بشأن القرآن وأنه نعمةٌ مِنَ اللهِ على المخاطبين، وشأنِ رسول الإسلام ﷺ وأنه رحمةٌ للعالمين.

والتذكيرُ بما أصاب الأممَ السالفةَ مِنْ جَرَّاء تكذيبهم رسلَهم، وأن وعد الله للذين كذبوا واقع، ولا يغرهم تأخيرُه؛ فهو جاءٍ لا محالة.

وحذَّرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين مِنْ قَبْلِهم حتى أصابهم بغتةً، وذَكَر مِنْ أشراطِ الساعةِ فتحَ يأجوجَ ومأجوجَ.

وذكَّرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق.

ومن الإيماءِ إلى أن وراء هذه الحياة حياةً أخرى أَتْقَنَ، وأحكمَ؛ لِتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت، ويَنْتَصِرُ الحقُّ على الباطل.

ثم ما في ذلك الخلقِ من الدلائل على وحدانية الخالق؛ إذ لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة.

وتنزيهُ الله -تعالى- عن الشركاء، وعن الأولاد، والاستدلالُ على وحدانية الله -تعالى-.

وما يُكرهه على فعل ما لا يريد.

وأن جميعَ المخلوقاتِ صائرون إلى الفناء.

وأعقب ذلك تذكيرُهم بالنعمةِ الكبرى عليهم، وهي نعمةُ الحفظ.

ثم عَطَفَ الكلامَ إلى ذكرِ الرسل والأنبياء.

وتنظيرِ أحوالهم وأحوالِ أممهم بأحوالِ محمدٍ ﷺ وأحوالِ قومه.

وكيف نَصَرَ اللهُ الرسلَ على أقوامهم، واستجاب دعواتِهم.

وأن الرسلَ كلَّهم جاؤوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطّعه الضالون قطعاً.

وأثنى على الرسل، وعلى مَنْ آمنوا بهم.

وأن العاقبةَ للمؤمنين في خيرِ الدنيا وخيرِ الآخرة، وأن اللهَ سيحكم بين الفريقين بالحق، ويعينُ رُسُلَه على تبليغ شرعه. ١٧/٦_٨

٦_ **ومن بدائع الإعجاز في هذه الآية** أن قوله _تعالى_: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ فيه محسن بديعي؛ فإن حروفه تقرأ من آخرها على الترتيب كما تقرأ من أولها مع خفة التركيب، ووفرة الفائدة، وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة.

ومثله قوله _تعالى_: ﴿رَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ بطرح واو العطف، وكلتا الآيتين بني على سبعة أحرف، وهذا النوع سماه السكاكي (المقلوب المستوي) وجعله من أصناف نوع سماه القلب.

وخص هذا الصنف بما يتأتى القلب في حروف كلماته، وسماها الحريري في المقامات (ما لا يستحيل بالانعكاس) وبَنَى عليه المقامة السادسة عشرة، ووضح أمثلة نثراً ونظماً، وفي معظم ما وضعه من الأمثلة تكلف وتنافر وغرابة، وكذلك

ما وضعه غيره على تفاوتها في ذلك، والشواهد مذكورة في كتب البديع؛ فعليك بتتبعها، وكلما زادت طولاً زادت ثقلاً.

قال العلامة الشيرازي في شرح المفتاح: «وهو نوع صعب المسلك قليل الاستعمال».

قلت: ولم يذكروا منه شيئاً وقع في كلام العرب؛ فهو من مبتكرات القرآن.

ذكر أهل الأدب أن القاضي الفاضل البيساني زار العماد الكاتب فلما ركب لينصرف من عنده قال له العماد: «سر فلا كبا بك الفرس» ففطن القاضي أن فيه مُحَسِّنَ القلبِ فأجابه على البديهة: «دام علا العماد» وفيه محسن القلب. ١٧/٦١ـ٦٢

٧ـ ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾.

وخلاصتها أن داود جلس للقضاء بين الناس، وكان ابنه سليمان حينئذ يافعاً؛ فكان يجلس خارج باب بيت القضاء؛ فاختصم إلى داود رجلان أحدهما عامل في حرث لجماعة في زرع أو كرم، والآخر راعي غنم لجماعة، فدخلت الغنم الحرث ليلاً فأفسدت ما فيه؛ فقضى داود أن تعطى الغنم لأصحاب الحرث؛ إذ كان ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ما تلف من ذلك الحرث، فلما حكم بذلك وخرج الخصمان، فقص أمرهما على سليمان، فقال: لو كنت أنا قاضياً لحكمت بغير هذا؛ فبلغ ذلك داود؛ فأحضره وقال له: بماذا كنت تقضي؟

قال: إني رأيت ما هو أرفق بالجميع، قال: وما هو؟ قال: أن يأخذ أصحاب

الغنم الحرث يقوم عليه عاملهم، ويصلحه عاماً كاملاً حتى يعود كما كان، ويرده إلى أصحابه، وأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم تسلّم لراعيهم؛ فينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها في تلك المدة؛ فإذا كمل الحرث وعاد إلى حاله الأول صرف إلى كل فريق ما كان له.

فقال داود: وفقت يا بني، وقضى بينهما بذلك. ١١٦/١٧

٨ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾.

أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمدﷺ وتصديق دعوته، فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد الله فيهم وإثبات رسالة محمدﷺ وأنه لم يكن بدعاً من الرسل، وذكروا إجمالاً، ثم ذكرت طائفة منهم على التفصيل، وتخلل ذلك بمواعظ ودلائل.

وعُطِفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكماً وعلماً، وذكر ما أوتوه من الكرامات؛ فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ.

ومزيتها على سائر الشرائع مزيةٌ تناسب عمومَها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين؛ فهذه الجملة عطف على جملة ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ختاماً لمناقب الأنبياء، وما بينهما اعتراض واستطراد. ١٦٤/٧ـ١٦٥

٩ـ وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول: فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي أحد

تلامذة أبي علي الغساني وممن أجاز لهم أبو الوليد الباجي من رجال القرن الخامس: «زيَّن الله محمداً ﷺ بزينة الرحمة؛ فكان كونه رحمة، وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة على الخلق» ا ـ هـ.

ذكره عنه عياض في الشفاء، قلت: يعني أن محمداً ﷺ فطر على خُلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة؛ لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائماً رغبته وخلقه، قالت عائشة: «**كان خلقه القرآن**».

ولهذا خَصَّ اللهُ محمداً ﷺ في هذه السورة بوصف الرحمة، ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله، قال ـتعالىـ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال ـتعالىـ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ أي برحمة جبلك عليها، وفطرك بها؛ فكنت لهم ليناً، وفي حديث مسلم: أن رسول الله لما شج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «**إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة**».

وأما المظهر الثاني من مظاهر كونه رحمة للعالمين: فهو مظهر تصاريف شريعته، أي ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم؛ لأن قوله ـتعالىـ: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿رَحْمَةً﴾. ١٧/١٦٦ـ١٦٧

١٠ـ لا جرم أن الله ـتعالىـ خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة

الكاملة، وقد أشار إلى ذلك قوله -تعالى- فيما حكاه خطابا منه لموسى -عليه السلام-: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ الآية.

ففي قوله -تعالى-: ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة؛ **فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم**، وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

وحكمةُ تمييزِ شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها لأن تساس بالرحمة، وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها؛ فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة، وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة - لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة.

ولكن الله أسعد هذه الشريعةَ، والذي جاء بها، والأمةَ المتبعةَ لها - بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريعَ رحمةٍ إلى انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر، قال -تعالى-: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ وقال -تعالى-: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ وقال النبي ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**».

وما يُتَخَيَّل من شدة في نحو القصاص والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة كما أشار إليه قوله -تعالى-: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾.

فالقصاص والحدود شدة على الجناة، ورحمة ببقية الناس.

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه، وهم أهل الذمة.

ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

هذا وإن أريد بـ(العالمين) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه، وانتفاعه به؛ إذ هو مخلوق لأجل الإنسان قال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك؛ ولذلك كُرِهَ صيد اللهو، وحُرِّم تعذيب الحيوان لغير أكله، وعد فقهاؤنا سباق الخيل رخصة للحاجة في الغزو ونحوه.

ورغبت الشريعة في رحمة الحيوان؛ ففي حديث الموطأ عن أبي هريرة مرفوعاً: «**أن الله غفر لرجل وجد كلباً يلهث من العطش، فنزل في بئر، فملأ خفه ماءً، وأمسكه بفمه حتى رقي، فسقى الكلب، فغفر الله له**».

أما المؤذي والمضر من الحيوان فقد أذن في قتله وطرده؛ لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم، وفي تفاصيل الأحكام من هذا القبيل كثرة لا يُعْوِزُ الفقيهَ تتبعُها. ١٧/١٦٨ـ١٧٠

سورة الحج

١ـ سميت هذه السورة سورة الحج في زمن النبيﷺ.

أخرج أبو داود، والترمذي عن عقبة بن عامر قال: «**قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم**».

وأخرج أبو داود، وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان.

وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

ووجه تسميتها سورةُ الحج أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم ـعليه السلامـ بالدعوة إلى حج البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك؛ تنويهاً بالحج وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعاً للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام، وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة، وفي سورة آل عمران. ١٧٩/١٧

٢ـ واختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية، أو كثير منها مكي وكثير منها مدني. ١٨٠/١٧

٣ـ وقال الجمهور هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني وهي مختلطة، أي لا يعرف المكي بعينه، والمدني بعينه، قال ابن عطية: «وهو الأصح». ١٨٠/١٧

٤ـ وأقول: ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بضع آيات من عدة سور: إنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها، بل أرادوا

أن كثيراً منها مكي، وأن مثله أو يقاربه مدني، وأنه لا يتعين ما هو مكي منها وما هو مدني؛ ولذلك عبروا بقولهم: هي مختلطة. ١٧/١٨٠

٥ـ **ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة؛** فإن افتتاحها بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ جارٍ على سنن فواتح السور المكية.

وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكة.

ومع هذا فليس الافتتاح بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ بمعين أن تكون مكية، وإنما قال ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يراد به المشركون؛ ولذا فيجوز أن يوجه الخطاب به إلى المشركين في المدينة في أول مدة حلول النبي ﷺ بها؛ فإن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يناسب أنه نزل بالمدينة حيث صد المشركون النبي والمؤمنين عن البقاء معهم بمكة.

وكذلك قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فإنه صريح في أنه نزل في شأن الهجرة. ١٧/١٨٠ـ١٨١

٦ـ **ومن أغراض هذه السورة:** خطابُ الناسِ بأمرهم أن يتقوا الله، ويخشوا يومَ الجزاءِ وأهوالَه.

والاستدلالُ على نفي الشرك، وخطابُ المشركين بأن يُقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله ـتعالىـ بالإلهية وعن المجادلة في ذلك؛ اتباعاً لوساوس الشياطينِ، وأن الشياطينَ لا تغني عنهم شيئاً، ولا ينصرونهم في الدنيا وفي الآخرة.

وتفظيعُ جدالِ المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم

يُعرضون عن الحُجة؛ ليضلوا الناس.

وأنهم يرتابون في البعث وهو ثابتٌ لا رِيْبَةَ فيه، وكيف يرتابون فيه بِعِلَّةِ استحالةِ الإحياءِ بعد الإماتة؟ ولا ينظرون أن اللهَ أوجد الإنسانَ من تراب، ثم من نطفة، ثم طوَّره أطواراً.

وأن اللهَ ينزلُ الماءَ على الأرض الهامدةِ، فتحيا، وتُخْرِجُ من أصناف النبات؛ فالله هو القادرُ على كلِّ ذلك؛ فهو يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير.

وأن مجادلتَهم بإنكار البعث صادرةٌ عن جهالة وتكبر عن الامتثال لقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

ووَصْفُ المشركين بأنهم في تردد من أمرهم في اتباع دين الإسلام.

والتعريضُ بالمشركين بتكبُّرهم عن سُنّةِ إبراهيمَ -عليه السلام- الذي ينتمون إليه، ويحسبون أنهم حماةُ دينهِ، وأمناءُ بيته، وهم يخالفونه في أصل الدين.

وتذكيرٌ لهم بما مَنَّ اللهُ عليهم في مشروعية الحج من المنافع؛ فكفروا نِعْمَتَه.

وتنظيرُهم في تلقي دعوةِ الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقَّوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر؛ فحل بهم العذاب.

وأنه يوشك أن يَحِلَّ بهؤلاء مِثْلُهُ؛ فلا يَغُرَّهم تأخيرُ العذاب؛ فإنه إملاءٌ مِنَ اللهِ لهم كما أملى للأمم مِنْ قَبْلِهِمْ، وفي ذلك تأنيسٌ للرسول -عليه الصلاة والسلام- والذين آمنوا، وبشارة لهم بعاقبة النصر على الذين فَتَنوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ.

وأن اختلافَ الأممِ بين أهل هدىً وأهل ضلالٍ أمرٌ به افترقَ الناسِ إلى مللٍ كثيرة.

وأن يومَ القيامةِ هو يومُ الفصلِ بينهم لمشاهدة جزاءِ أهلِ الهدى وجزاءِ أهلِ الضلال.

وأن المهتدين والضالين خصمان اختصموا في أمر الله؛ فكان لكلٍّ فريقٍ جزاؤه.

وسَلّى اللهُ رسولَه -عليه الصلاة والسلام- والمؤمنين بأن الشيطانَ يُفْسِدُ في قلوب أهل الضلالة آثارَ دعوةِ الرسلِ، ولكنَّ اللهَ يُحكم دينَه، ويبطل ما يلقي الشيطان؛ فلذلك ترى الكافرين يُعْرِضُون، وينكرون آياتِ القرآن.

وفيها التنويهُ بالقرآنِ والمتلقين له بخشية وصبر، ووصفُ الكفارِ بكراهيتهم القرآن، وبغضِ المُرْسَلِ به، والثناءُ على المؤمنين، وأن اللهَ يَسَّرَ لهم اتباعَ الحنيفيةِ وسماهم المسلمين.

والإذنُ للمسلمين بالقتال، وضمانُ النصرِ، والتمكينُ في الأرض لهم.

وخُتِمَتِ السورةُ بتذكير الناسِ بِنِعَمِ اللهِ عليهم، وأن اللهَ اصطفى خَلْقاً مِنَ الملائكة ومِنَ الناس؛ فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم إلى الله زلفى، وأن الله هو مولاهم وناصرُهم. ١٧/١٨٣-١٨٥

٧- **فأما المجوس** فهم أهل دين يثبت إلهين: إلهاً للخير، وإلهاً للشر، وهم أهل فارس.

ثم هي تتشعب شعباً تأوي إلى هذين الأصلين.

وأقدم النحل المجوسية أسسها (كيومرث) الذي هو أول ملك بفارس في أزمنة قديمة يظن أنها قبل زمن إبراهيم - عليه السلام - ولذلك يلقب -أيضاً- بلقب (جل شاه) تفسيره: ملك الأرض.

غير أن ذلك ليس مضبوطاً بوجه علمي، وكان عصر (كيومرث) يلقب (زروان) أي الأزل، فكان أصل المجوسية هم أهل الديانة المسماة: الزروانية وهي تثبت إلهين هما (يزدان) و (أهرمن).

قالوا: كان يزدان منفرداً بالوجود الأزلي، وأنه كان نورانياً، وأنه بقي كذلك تسعة آلاف وتسعين سنة، ثم حدث له خاطر في نفسه: أنه لو حدث له منازع كيف يكون الأمر؛ فنشأ من هذا الخاطر موجود جديد ظلماني سمي (أَهْرُمَنْ) وهو إله الظلمة مطبوعاً على الشر والضر، وإلى هذا أشار أبو العلاء المعري بقوله في لزومياته:

قال أناسٌ باطلٌ زَعْمُهُمْ فراقبوا الله ولا تزعمن
فَكَّر يزدانُ على غِرَّةٍ فصيغ من تفكيره أَهْرُمَنْ

فحدث بين (أهرمن) وبين (يزدان) خلاف ومحاربة إلى الأبد، ثم نشأت على هذا الدين نحل خُصَّت بألقاب، وهي متقاربة التعاليم أشهرها نحلة (زرادشت) الذي ظهر في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، وبه اشتهرت المجوسية.

وقد سمي إله الخير (أهورا مزدا) أو (أرمزد) أو (هرمز).

وسمي إله الشر (أهرمن) وجعل إله الخير نوراً، وإله الشر ظلمة، ثم دعا الناس إلى عبادة النار على أنها مظهر إله الخير وهو النور، ووسع شريعة المجوسية، ووضع لها كتاباً سماه (زندافستا).

ومن أصول شريعته تجنب عبادة التماثيل.

ثم ظهرت في المجوس نحلة (المانوية) وهي المنسوبة إلى (ماني) الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير ملك الفرس بين سنة ٢٣٨ وسنة ٢٧١م.

وظهرت في المجوس نحلة (المزدكية) وهي منسوبة إلى (مزدك) الذي ظهر في زمن قباذ بين سنة ٤٨٧ وسنة ٥٢٣م، وهي نحلة قريبة من (المانوية)، وهي آخر نحلة ظهرت في تطور المجوسية قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس.

وللمجوسية شبه في الأصل بالإشراك إلا أنها تخالفه بمنع عبادة الأحجار، وبأن لها كتاباً، فأشبهوا بذلك أهل الكتاب؛ ولذلك قال النبي ﷺ فيهم: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**».

أي في الاكتفاء بأخذ الجزية منهم دون الإكراه على الإسلام كما يكره المشركون على الدخول في الإسلام. ١٧/٢٢٣ـ٢٢٤

٨ـ **والتفث**: كلمة وقعت في القرآن، وتردد المفسرون في المراد منها، واضطرب علماء اللغة في معناها لعلهم لم يعثروا عليها في كلام العرب المحتج به.

قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعلمون التفث إلا من التفسير، أي من أقوال المفسرين، فعن ابن عمر وابن عباس: التفث: مناسك الحج وأفعاله كلها، قال ابن العربي: «لو صح عنهما لكان حجة الإحاطة باللغة».

قلت: رواه الطبري عنهما بأسانيد مقبولة، ونسبه الجصاص إلى سعيد، وقال نفطويه وقطرب: التفث: هو الوسخ والدرن، ورواه ابن وهب عن مالك ابن أنس، واختاره أبو بكر بن العربي، وأنشد قطرب لأمية بن أبي الصلت:

حفوا رؤوسهم لم يحلقوا تفثاً ... ولم يسلوا لهم قملاً وصئبانا

ويحتمل أن البيت مصنوع؛ لأن أئمة اللغة قالوا: لم يجئ في معنى التفث شعر يحتج به.

قال نفطويه: سألت أعرابياً: ما معنى قوله: ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾، فقال: ما أفسر القرآن، ولكن نقول للرجل ما أتفثك، أي ما أدرنك.

وعن أبي عبيده: التفث: قص الأظفار، والأخذ من الشارب، وكل ما يحرم على المحرم، ومثله قوله عكرمة ومجاهد، وربما زاد مجاهد مع ذلك: رمي الجمار.

وعن صاحب العين والفراء والزجاج: التفث الرمي، والذبح، والحلق، وقص الأظفار والشارب وشعر الإبط.

وهو قول الحسن، ونسب إلى مالك بن أنس ـأيضاًـ.

وعندي: أن فعل ﴿لِيَقْضُوا﴾ ينادي على أن التفث عمل من أعمال الحج وليس وسخاً ولا ظفراً ولا شعراً، ويؤيده ما روي عن ابن عمر وابن عباس آنفاً، وأن موقع (ثم) في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادي على معنى التراخي الرتبي، فيقتضي أن المعطوف بـ:(ثم) أهم مما ذكر قبلها؛ فإن أعمال الحج هي المهم في الإتيان إلى مكة؛ فلا جرم أن التفث هو مناسك الحج، وهذا الذي درج عليه الحريري في قوله في المقامة المكية: «فلما قضيت بعون الله التفث، واستبحت الطيب والرفث ـ صادف موسم الخيف معمعان الصيف». ١٧/٢٤٨ـ٢٤٩

٩ـ **الشعائر**: جمع شعيرة: المعلم الواضح مشتقة من الشعور.

وشعائر الله: لَقَبٌ لمناسك الحج، جمع شعيرة بمعنى: مشعرة بصيغة اسم الفاعل أي معلمة بما عَيَّنَهُ الله.

فمضمون جملة: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ الخ، أخص من مضمون جملة: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ وذكر الأخص بعد الأعم للاهتمام، أو بمعنى مشعر بها؛ فتكون شعيرة فعيلة بمعنى مفعولة؛ لأنها تُجْعَل؛ ليشعر بها الرائي.

وتقدم ذكرها في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ في سورة البقرة، فكل ما أمر الله به بزيارته، أو بفعل يوقع فيه فهو من شعائر الله، أي مما أشعر الله الناس وقرره، وشَهَره، وهي معالم الحج: الكعبة، والصفا والمروة، وعرفة، والمشعر الحرام، ونحوها من معالم الحج.

وتطلق الشعيرة -أيضاً- على بدنة الهدي، قال -تعالى-: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ لأنهم يجعلون فيها شعاراً، والشعار العلامة بأن يطعنوا في جلد جانبها الأيمن طعناً حتى يسيل منه الدم فتكون علامة على أنها نُذِرَتْ للهدي؛ فهي فعيلة بمعنى مفعولة مصوغة من أشعر على غير قياس. ١٧/٢٥٦

١٠- **والقانع**: المتصف بالقنوع، وهو التذلل، يقال: قَنَعَ من باب سأل، قُنُوعاً - بضم القاف - إذا سأل بتذلل.

وأما القناعة ففعلها من باب تَعِبَ، ويستوي الفعل المضارع مع اختلاف الموجب، ومن أحسن ما جُمِع من النظائر ما أنشده الخفاجي:

العَبْـــدُ حُـــرٌّ إن قَنِـــع ... والحـــر عبـــد إن قَنَـــع

فـــاقنَع ولا تقنَـــع فمـــا ... شـــيء يـــشين ســـوى الطمـــع

وللزمخشري في مقاماته: «يا أبا القاسم اقنع من القناعة لا من القُنوع، تستغن عن كل معطاء ومنوع».

وفي الموطأ في كتاب الصيد: «قال مالك: والقانع هو الفقير».

والمعترّ: اسم فاعل من اعتر إذا تعرض للعطاء، أي دون سؤال، بل بالتعريض وهو أن يحضر موضع العطاء، يقال: اعتر، إذا تعرض.

وفي الموطأ في كتاب الصيد: قال مالك: «وسمعت أن المعتر هو الزائر، أي فتكون من عرا إذا زار».

والمراد زيارة التعرض للعطاء.

وهذا التفسير أحسن، ويرجحه أنه عطف (المعتر) على (القانع) فدل العطف على المغايرة، ولو كانا في معنى واحد لما عطف عليه كما لم يعطف في قوله: ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾. ٢٦٥/١٧-٢٦٦

١١- وقد عرض غير مرة سؤال عما إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم قطعاً أو ظناً قريباً من القطع كما شوهد ذلك في مواسم الحج، فما يبقى منها حياً يباع وينفق ثمنه في سد خَلَّة المحاويج أجدى من نحره أو ذبحه حين لا يرغب فيه أحد.

ولو كانت اللحوم التي فات أن قطّعت، وكانت فاضلة عن حاجة المحاويج يعمل تصبيرها بما يمنع عنها التعفن فينتفع بها في خلال العام أجدى للمحاويج.

وقد تَرَدَّدَتْ في الجواب عن ذلك أنظارُ المتصدين للإفتاء من فقهاء هذا العصر، وكادوا أن تتفق كلماتُ مَنْ صدرت منهم فتاوى على أن تصبيرها منافٍ للتعبد بهديها.

أما أنا فالذي أراه أن المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة الناس في أيام الحج؛ لينتفع بها المحتاجون في عامهم - أوفق بمقصد الشارع؛ تجنباً لإضاعة ما فضل منها؛ رعياً لمقصد الشريعة من نفع المحتاج، وحفظ الأموال مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها المشار إليه بقوله -تعالى-:

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ جمعاً بين المقاصد الشرعية.

وتَعْرِضُ صورة أخرى وهي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يتعجل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأول؛ طلباً لفضيلة المبادرة؛ فإن التقوى التي تصل إلى الله من تلك الهدايا هي تسليمها للنفع بها.

وهذا قياس على أصل حفظ الأموال كما فرضوه في بيع الفرس الحُبْس إذا أصابه ما يفضي به إلى الهلاك أو عدم النفع، وفي المعاوضة لربع الحبس إذا خرب. ١٧/٢٦٨_٢٦٩

١٢ـ **وحكم الهدايا مركب من تعبد وتعليل**، ومعنى التعليل فيه أقوى، وعلته انتفاع المسلمين، ومسلكُ العلةِ الإيماءُ الذي في قوله ـتعالىـ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾.

واعلم أن توهم التقرب بتلطيخ دماء القرابين وانتفاع المتقرب إليه بتلك الدماءـ عقيدة وثنية قديمة؛ فربما كانوا يطرحون ما يتقربون به من لحم وطعام؛ فلا يدعون أحداً يأكله، وكان اليونان يشوون لحوم القرابين على النار حتى تصير رماداً ويتوهمون أن رائحة الشواء تسر الآلهةَ المُتَقَرَّبَ إليها بالقرابين.

وكان المصريون يلقون الطعام للتماسيح التي في النيل؛ لأنها مقدسة. ١٧/٢٦٩

١٣ـ **والصوامع**: جمع صومعة بوزن فَوْعلة، وهي بناء مستطيل مرتفع يصعد إليه بدرج وبأعلاه بيت، كان الرهبان يتخذونه للعبادة؛ ليكونوا بعداء عن

مشاغلة الناس إياهم، وكانوا يوقدون به مصابيح للإعانة على السهر للعبادة؛ ولإضاءة الطريق للمارين؛ من أجل ذلك سميت الصومعة المنارة، قال امرؤ القيس:

تضيءُ الظلامَ بالعشي كأنها ... منارة مُمْسى راهبٍ متبتل

والبِيَعُ: جمع بِيْعة ـ بكسر الباء وسكون التحتية ـ مكان عبادة النصارى، ولا يعرف أصل اشتقاقها، ولعلها معربة عن لغة أخرى.

والصلوات: جمع صلاة وهي هنا مراد بها كنائسُ اليهود معربة عن كلمة (صلوثا) ـبالمثلثة في آخره بعدها ألفـ فلما عربت جعلوا مكان المثلثة مثناة فوقية وجمعوها كذلك.

وعن مجاهد، والجحدري، وأبي العالية، وأبي رجاء أنهم قرأوها هنا ﴿وَصَلَوَاث﴾ بمثلثة في آخره.

وقال ابن عطيه: قرأ عكرمة، ومجاهد ﴿صلويثا﴾ ـبكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاءـ (أي المثلثة كما قال القرطبي).

وهذه المادة قد فاتت أهل اللغة، وهي غفلة عجيبة.

والمساجد: اسم لمحل السجود من كل موضع عبادة ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية؛ فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنوا مسجد قباء، ومسجد المدينة. ١٧/ ٢٧٧ـ٢٧٨

١٤ ـ **والمراد بالمعروف**: ما هو مقرر من شؤون الدين: إما بكونه معروفاً للأمة كلها: وهو ما يعلم من الدين بالضرورة فيستوي في العلم بكونه من الدين سائر

الأمة ، وإما بكونه معروفاً لطائفة منهم وهو دقائق الأحكام ، فيأمر به الذين من شأنهم أن يعلموه وهم العلماء على تفوت مراتب العلم ومرتب[١] علمائه.

والمنكر: ما شأنه أن ينكر في الدين ، أي أن لا يُرضى بأنه من الدين ، وذلك كل عمل يدخل في أمور الأمة والشريعة وهو مخالف لها؛ فعلم أن المقصود بالمنكر الأعمال التي يراد إدخالها في شريعة المسلمين وهي مخالفة لها ، فلا يدخل في ذلك ما يفعله الناس في شؤون عاداتهم مما هو في منطقة المباح ، ولا ما يفعلون في شؤون دينهم مما هو من نوع الديانات كالأعمال المندرجة تحت كليات دينية ، والأعمال المشروعة بطريق القياس وقواعد الشريعة من مجالات الاجتهاد والتفقه في الدين.

والنهي عن المنكر آيل إلى الأمر بالمعروف وكذلك الأمر بالمعروف آيل إلى النهي عن المنكر ، وإنما جمعت الآية بينهما باعتبار أول ما تتوجه إليه نفوس الناس عن مشاهدة الأعمال، ولتكون معروفة دليلاً على إنكار المنكر، وبالعكس؛ إذ بضدها تتمايز الأشياء ، ولم يزل من طرق النظر والحجاج الاستدلال بالنقائض والعكوس. ٢٨١/١٧

١٥ـ **والإملاء**: ترك المتلبس بالعصيان دون تعجيل عقوبته ، وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نجا ، ثم يؤخذ بالعقوبة. ٢٨٤/١٧

١٦ـ **والتمني** : كلمة مشهورة ، وحقيقتها : طلب الشيء العسير حصوله.

والأُمْنِيَّة: الشيء المتمنى ، وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلهم

---

١ ـ هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : ومراتب. (م)

صالحين مهتدين. ١٧/٢٩٧ـ٢٩٨

١٧ـ **ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول** إلقاء ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السم في الدسم؛ فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان.

والله ـتعالىـ يعيد الإرشاد ويكرر الهدي على لسان النبي، ويفضح وساوس الشيطان وسوء فعله بالبيان الواضح. ١٧/٢٩٨ـ٢٩٩

١٨ـ **وقد فسر كثير من المفسرين ﴿تَمَنَّى﴾ بمعنى قرأ**، وتبعهم أصحاب كتب اللغة وذكروا بيتاً نسبوه إلى حسان بن ثابت، وذكروا قصة بروايات ضعيفة سنذكرها.

وأيًّاماً كان فالقول فيه هو والقول في تفسير التمني بالمعنى المشهور سواء، أي إذا قرأ على الناس ما أنزل إليه؛ ليهتدوا به ألقى الشيطان في أمنيته، أي في قراءته، أي وسوس لهم في نفوسهم ما يناقضه وينافيه بوسوسته للناس التكذيب والإعراض عن التدبر؛ فَشَبَّهَ تسويلَ الشيطان بوسوسته للكافرين عدم امتثال النبي بإلقاء شيء في شيء؛ لِخَلْطه وإفساده.

وعندي في صحة إطلاق لفظ الأُمْنِيَّة على القراءة شك عظيم؛ فإنه وإن كان قد ورد تمنّى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسان بن ثابت إن صحت رواية البيت عن حسان على اختلاف في مصراعه الأخير:

تمنى كتاب الله أول ليله ... تمني داود الزبور على مهل

فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية.

ويجوز أن يكون المعنى أن النبي إذا تمنى هَدْي قومه، أو حرص على ذلك فلقي منهم العناد، وتمنى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم عسى أن يقصر النبي من حرصه أو أن يضجره.

وهي خواطر تلوح في النفس، ولكن العصمة تعترضها؛ فلا يلبث ذلك الخاطر أن ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كُلِّف به من الدأب على الدعوة، والحرص على الرشد؛ فيكون معنى الآية على هذا الوجه مُلَوِّحاً إلى قوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾.

و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ للترتيب الرتبي؛ لأن إحكام الآيات وتقريرها أهم من نسخ ما يلقي الشيطان؛ إذ بالإحكام يتضح الهدى، ويزداد ما يلقيه الشيطان نسخاً.

وجملة: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ معترضة.

ومعنى هذه الآية: أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله، ويعظونهم، ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة حتى يظنوا أن أمنيتهم قد نجحت، ويقترب القوم من الإيمان، كما حكى الله عن المشركين قولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

فيأتي الشيطان، فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار، فينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس ضروبٌ شتى من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حكيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسك أهل الضلالة بدينهم، ويصدون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله: ﴿لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وقوله: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾.

وكلما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رُسُلَه فعاودوا الإرشاد وكرروه وهو سبب تكرر مواعظ متماثلة في القرآن؛ فبتلك المعاودة ينسخ ما ألقاه الشيطان، وتثبت الآيات السالفة.

فالنسخ: الإزالة، **والإحكام**: التثبيت، وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي ينسخ آثار ما يلقي الشيطان، ويحكم آثار آياته. ١٧/٢٩٩-٣٠١

١٩- وبما تلقيتَ في تفسير هذه الآية من الانتظام البين الواضح المستقل بدلالته والمستغني بنهله عن علالته، والسالم من التكلفات والاحتياج إلى ضميمة القصص - ترى أن الآية بمعزل عما ألصقه بها الملصقون والضعفاء في علوم السنة، وتلقَّاه منهم فريق من المفسرين، حباً في غرائب النوادر دون تأمل ولا تمحيص من أن الآية نزلت في قصة تتعلق بسورة النجم؛ فلم يكتفوا بما أفسدوا من معنى هذه الآية حتى تجاوزوا بهذا الإلصاق إلى إفساد معاني سورة النجم؛ فذكروا في ذلك روايات عن سعيد بن جبير، وابن شهاب، ومحمد بن كعب القرطبي، وأبي العالية، والضحاك.

وأقربها رواية عن ابن شهاب وابن جبير والضحاك قالوا: إن النبي ﷺ جلس

في نادٍ من أندية قريش كثيرٍ أهله من مسلمين وكافرين ، فقرأ عليهم سورة النجم فلما بلغ قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ ألقى الشيطان بين السامعين عقب ذلك قوله: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» ففرح المشركون بأن ذكر آلهتهم بخير.

وكان في آخر تلك السورة سجدة من سجود التلاوة؛ فلما سجد في آخر السورة سجد كل من حضر من المسلمين والمشركين ، وتسامع الناس بأن قريشاً أسلموا حتى شاع ذلك ببلاد الحبشة؛ فرجع من مهاجرة الحبشة نفر منهم عثمان ابن عفان إلى المدينة ، وأن النبيﷺ لم يشعر بأن الشيطان ألقى في القوم؛ فأعلمه جبريل ـ عليه السلام ـ فاغتم لذلك فنزل قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية له.

وهي قصة يجدها السامع ضغثاً على إبالة[1] ولا يلقي إليها النِّحرير باله.

وما رويت إلا بأسانيد واهية ، ومنتهاها إلى ذكر قصة ، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبيﷺ وسندها إلى ابن عباس سند مطعون.

على أن ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبيﷺ وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين؛ لأنها تخالف أصل عصمة الرسولﷺ لا التباس عليه في تلقي الوحي؛ ويكفي تكذيباً لها قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ

١ـ هذا مثل معروف عند العرب ، ومعناه: بلية على أخرى كانت قبلها.

يقولون: «ضِغْثٌ على إبَّالة».

ومعنى الإبالة: الحزمة من الحطب ، ويروى: إبَالة مخففاً ، ويروى: إبيالة.

ومعنى الضغث: قبضة من حشيش مختلطةُ الرطب باليابس. (م)

﴿ الْهَوَى ﴾ وفي معرفة المَلَكِ؛ فلو رووها الثقات لوجب رفضها، وتأويلها؛ فكيف وهي ضعيفة واهية، وكيف يروج على ذي مُسْكَةٍ من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله ـتعالىـ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾.

فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها (الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى)؟

وهل هذا إلا كلام يلعن بعضه بعضاً؟!

وقد اتفق الحاكون أن النبيﷺقرأ سورة النجم كلها حتى خاتمتها: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾.

لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون؛ فدل على أنهم سمعوا السورة كلها.

وما بين آية: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾ وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين، وتزييف كثير لعقائد المشركين؛ فكيف يصح أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم؛ فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإن تأويلها: أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعزى فرصة للدَّخَل لاختلاق كلمات في مدحهن، وهي هذه الكلمات، وروجوها بين الناس؛ تأنيساً لأوليائهم من المشركين، وإلقاءً للريب في قلوب ضعفاء الإيمان. ١٧/٣٠٣ـ٣٠٥

٢٠ـ **والخطاب بـ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ للمشركين**؛ لأنهم المقصود بالرد والزجر وبقرينة قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ على قراءة الجمهور ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بتاء الخطاب.

فالمراد بـ: ﴿ النَّاسُ ﴾ هنا المشركون على ما هو المصطلح الغالب في القرآن.

ويجوز أن يكون المراد بـ: ﴿النَّاسُ﴾ جميع الناس من مسلمين ومشركين.

وفي افتتاح السورة بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وتنهيتها بمثل ذلك شَبَهٌ برد العجز على الصدر.

ومما يزيده حسناً أن يكون العجز جامعاً لما في الصدر وما بعده، حتى يكون كالنتيجة للاستدلال، والخلاصة للخطبة، والحوصلة للدرس. ١٧/٣٣٧-٣٣٨

٢١ـ وفسر صاحب الكشاف المثل هنا بالصفة الغريبة؛ تشبيهاً لها ببعض الأمثال السائرة، وهو تفسير بما لا نظير له ولا استعمال يعضده؛ اقتصاداً منه في الغوص عن المعنى لا ضعفاً عن استخراج حقيقة المثل فيها، وهو جذيعها[1] المحكك.

وعذيقها المرجب، ولكن أحسبه صادف منه وقت سرعة في التفسير أو شغلا بأمر خطير، وكم ترك الأول للأخير. ١٧/٣٤٠

١ـ هكذا في الأصل، والذي في لسان العرب ٤١٢/١، و١١/١٠٦-١٠٧: «أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب».

وهذه الكلمة قالها الحباب بن المنذر، ومعناها: أنني قد جربتني الأمور، ولي رأي وعلم يشتفى بهما. (م)